حرية أولاد الله

« حريـة مـجد أولاد الله »

(رومية 8 : 21)

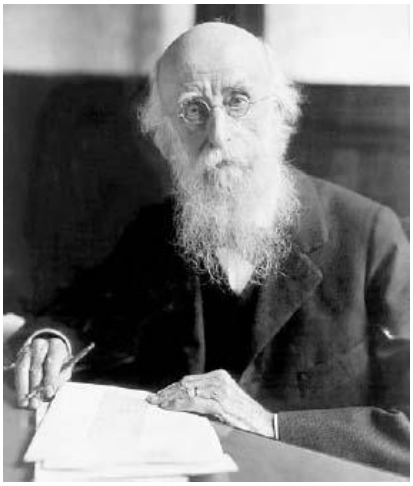

Lyman J. Abbott (December 18, 1835 – October 22, 1922) was an American

---

القاها: ليمان ابوت

في الطليعة من قواد الرأى فى امريكا في مطلع القرن العشرين، فلا يسبقه أحد ليحمل الراية من يد هنرى وارد بيتشر ، والذى كان صديقا حميما وزميلا في الخدمة.

ولد فى روكسبير يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٨3٥ ، وتخرج من كلية نيويورك سنة ١٨٥٣ ، ثم درس القانون واشتغل به بضع سنين . وظل عدة سنين يحرر فى مجلة «هار برز»، لم اتحد مع الدكتور بينشر فى تحرير « ذى كريستيان يوليون». وبعد وفاة هنرى وارد بيشتر واصل التحرير وخلفه على منبره. وكتب عدة كتب أبرزها عن حياة المسيح ، وبعض كتب أخرى من مواضيع اجتماعية وعلاقتها بالمسيحية ولم يشتهر مثله فى عصره في حصانة الرأى وعظاته التى كانت تجتذب ذوى الافكار الواسعة والمعلمين

استميحكم عذرا اذا ما صرفت بضع دقائق في تعريف هذا الحق بما يبدو أنه تعريف علمى ، ولكنى ساختصر جهد المستطاع لانى تواق مثلكم للانتقال من الجانب الفلسفى الى العملي والروحي . فالقانون هو اعلان ارادة سيد ذى سلطان ، مفروض انه يملك القوة لتنفيذ ارادته على الغير . فاذا لم يكن ذا سلطان فان ارادته ليست قانونا. مثلا الطبيب يعود الطفل المريض ويقول له : : « انت اجهدت نفسك كثيرا ونمت قليلا فينبغى أن تذهب الى الفراش كل ليلة الساعة التاسعة » . هذه نصيحة

وليست قانونا . فيقول الوالد : « يا بني لقد سمعت ما قاله الطبيب فيجب أن تنام كل ليلة الساعة التاسعة ». وفي هذه المرة كلام الوالد ليس نصيحة بل قانونا . لانه مفروض ان الوالد له سلطان على ولده . فتعريف القانون بالاختصار هو توفر عنصرين هما ارادة سيد وقوة لتنفيذ هذه الارادة على الآخرين ، وكل قانون يخضع لهذا التعريف.

.

فقوانين الطبيعة هى اعلان سيادة الخالق في القوى الكامنة فى الطبيعة أو القوة التى يسخر الطبيعة لاعلانها ، وقوانين الضوء والجاذبية والكهربائية كلها مظاهر لارادة الخالق معلنة في العالم المادى الذى خلقه . والتعريف نفسه ينطبق على ما نسميه القانون الأدبى ، اذ الفرق بين النواميس الطبيعية والأدبية هو أن الاشياء الطبيعية لا تستطيع أن تكسر القانون ولكن الأدبية يمكن ان تكسره. ولكن الخالق أظهر في العالم الأدبى ارادة حرة وهذه الإرادة هي العامل المهم في حفظ هذه النواميس أو كسرها .

فالناموس عامل يتخلل كل شيء ولا يخرج شيء عن نطاقه . وهو اعلان قدرة الكائن الأزلى الأبدى . والعلم يبين لنا أن قانون الجاذبية يربط اجزاء الذرة الصغيرة كما يربط الكواكب ، وأن القوانين الكيمائية فى الشمس البعيدة هى القوانين التي نستخدمها في معاملنا . فما هى صلتك وصلتى اذن بهذا القانون الذى فرضه الخالق العظيم القادر على تنفيذ سننه وشرائعه ؟ هذا هو الفكر الذى أريد أن تتأملوا فيه معى.

توجد ثلاث حالات ممكنة ازاء ارادة الخالق

(١) قد نغفلها بتاتا كأن لم تكن كما نغفل قانون الحرارة مثلا فتحرق أصابعنا ، أو كما نفعل بقانون الجاذبية فنسقط وننكسر.

(٢) قد نعتبر القانون ونعيش محافظين على قواعده ولكن محافظة المضطر الخائف، فنقول هنا عقل مدير كبير وارادة مسيطرة ولا مفر من الرضوخ لهذه الارادة .

(٣) قد نستخدم النواميس لمنفعتنا بالسير وفق ما تتطلبه قواعدها من الحياة.

فالحالة الثالثة هى التى أرغب أن أشرحها لكم . هى حالة من يرى في القوى التى أودعها الله في كلا العالمين المادى والروحى ، اداة قوية يستطيع الطفل أن يستخدمها للمنفعة . فالحالة الأولى هي ما يمكن تسميته « عدم التقيد بقانون » ، أو الاستباحة . والثانية هى الخضوع . والثالثة حالة العقل الذى يدرك بوضوح حرية مجد اولاد الله . ففى العالم المادى مثلا ترى المتوحش لا يفقه شيئا عن قوانينه ، بل يجهلها ويحيا كانها غير موجودة. وشيئا فشيئا يبتدىء يعرفها الواحدة بعد الأخرى ، حتى يصل الى الحالة التى نسميها الخلاص من عقاب الاباحية

ولكن ليس هذا هو الغرض ، وليس هذا هو التمدين ، اذ يوجد شيء أفضل من مجرد الطاعة العمياء . والحياة العصرية تمثل لنا هذا ، فنحن اليوم نسخر قوى الطبيعة الهائلة وندرسها ونفهمها جيدا وعندئذ نجعلها خادمة لأغراضنا . فنحن لسنا تحت الناموس بل هو تحتنا لأننا نفهمه. ان الطيور تفهم ذلك . ارايت ذلك الطائر الجميل متكئا على احضان الريح ؟ الم تود أن يكون لك جناحان مثله وتحلق في تلك الأجواء العالية ؟ انه يطير لأنه يفهم جيدا قانون الجاذبية الذى يجذبه فلا يهوى . وكما كنا نعمل الطيارات الورق في صبانا وهى متصلة بالأرض بالخيط الذى نشدها به ، هكذا هذا الطائر محمول في الهواء بقانون الجاذبية . اقطع الخيط فتسقط «الطيارة»، اكسر القانون فيسقط الطائر الى الأرض.

نحن لا نكتفى بأن نبتعد عن النار حتى لا نحترق ، بل نستخدم حرارتها ونحولها الى قوة ، وبالتالي تصير هذه القوة في خدمتنا . وكما أننا لا نكتفى بالهرب من اخطار الكهرباء بل نعرف نواميسها فنمسك بناصيتها ونحدر قواها الى الأرض ونستعملها للاضاءة في منازلنا وتسيير مركباتنا ، هكذا كل نظام المدنية الحديثة المادى انما يقودنا الى حرية مجد أولئك الذين حصلوا على حصة من قوة أبيهم السماوى لاستخدام قوى الكون لمنفعة بني البشر وجعلها خاضعة الارادتهم .

وهذا القانون يصدق تماما على ما نسميه قوانين الصحة . فالمستبيح يقول : أنا لا يهمنى قانون الصحة ، وها أنا أعمل ما اشتهى. اليوم أعمل ما اشتهى وغدا لا أعمل شيئا . اليوم انام ست ساعات وغدا عشرا ، وارقص كما يحلو لى الرقص ، وآكل ما اشتهى . هذه هى الاباحية . لكن آخر يعرف قانون الصحة ويخضع له قائلا : يجب على أن أطيع ، وكم كنت أود لو لم يكن هناك اى قانون فكنت اعمل كما احب ، ولكنى اخاف لئلا أمرض. لكن ثالثا يفهم ويعرف ان يستعمل اعضاءه لبناء جسمه

وتقويته . الاطفال لم يكونوا يفهمون قواعد الصحة كما نفهمها الآن . ولم يكونوا يعبأون بممارسة الرياضة البدنية . ومعلمنا يقول : دعوا الأولاد يلعبون لأنهم عيال ، ولكن الولد الطيب يمكث في البيت ليقضي كل الوقت في المذاكرة . ولكن الآن اتسعت مداركنا. فالتلاميذ يجب أن يخرجوا ليلعبوا. فالعلم يخبرنا أن القوانين ليست اربطة تقيدنا بل أسرار قوة . وكل يوم يكشف لنا العلم أشياء ، فنفهم أن في الجسم قوى واسرارا ان اعتبرناها فانها تبنى أجسامنا وعقولنا فنصل إلى حرية مجد اولاد الله ، وذلك بتسخيرها وليس بالرضوخ لها قسرا.

وهذه القاعدة تنطبق على العالم الأدبى ايضا. فالقوانين الأدبية ليست قيودا تحد من حريتنا بل هى عوامل قوية ، وليست اربطة تقيدنا ولكنها تاييدات معونة. فالنواميس العظمى الاجتماعية المتضمنة في الوصايا العشر وهى : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن ، لا تشهد بالزور ، ما هى ؟ هى احترام حقوق الفرد واحترام حقوق الملكية ، واحترام حقوق المتاع ، واحترام السمعة . وهى المبادىء الأساسية للنظام الاجتماعى . ولكن هناك من لا يعبا ولا يهتم بها ، وأولئك هم طبقة المجرمين. ولكن يوجد فريق آخر يحترمها لا طوعا بل كرها و خوفا من الوقوع تحت القصاص . هم لا يقتلون ، ولكنهم لا يتورعون أن يعصروا جارهم كما تعصر الليمونة وترمى قشرها وهم لا يسرقون ولكنهم ينشلون جيوب الخلق ، ولهم طرائق شتى في تبرير أعمالهم . فهم يعيشون تحت أحكام الناموس لكن عند حدوده الخارجية بقدر ما يستطيعون من جهد.

اجل ، انه من هذه المبادىء الأولى للنظام الاجتماعي تتفرع كل الانظمة الأدبية والمدنية . فأنت تكتب خطابا الليلة وتلقيه في صندوق البريد وبعد أن يمر في اياد متعددة يصل الى سان فرنسيسكو بعد اسبوع تقريبا . لماذا ؟ لأنه في الولايات المتحدة يوجد قانون يحترم حقوق الغير حيث لا يوجد مثله، مثلا فى بلد خارج عن نظام البريد . ثم تسحب صكا على البنك ، فيمر في مئات الأيدى ، وأخيرا يدفع البنك القيمة بالتمام . لماذا ؟ لأننا شيدنا نظام المصارف في البلدان التجارية العظيمة حيث تحترم حقوق الملكية . فهذه القوانين لم يقصد بها الحد من الحرية ولكنها اساس نظام صناعى وتجارى لخدمة المجتمع .

وكل الإصلاحات الأدبية ترتكز على هذه الاسس . انه حتى سنة ١٧٧٦ كانت الدول الأوربية العظيمة تستخدم مستعمراتها لسد احتياجاتها ، فكانت انجلترا تستخدم ثروة الهند لغناها ، وكانت تستخدم المستعمرات الأمريكية لثروتها . وقد اكتوى آباؤنا بنار

الحروب لتقرير مبدأ أن الحكومة تكون لمنفعة المحكومين . ونجاح الثورة الأمريكية قد غير مجرى سياسة انجلترا الاستعمارية . وفي خلال نصف القرن الأخير كانت تسوس المستعمرات لفائدة ومنفعة المستعمرات ذاتها ، وبهذا اغتنت ايضا . لقد اتكل آباؤنا على معونة الله القدير في نظام حكمهم ، ولذا انطبق عليهم المثل القائل : ان واحدا مع لله يكون اغلبية . فالطفل يستطيع أن يحرك العتلة التي تدير ماكينة قوة ألف حصان . ومصلح ادبى له رؤيا جليلة عن الحق وايمان عميق في الحق الهاجع في صدور الناس ، يحرك العتلة الروحية التي لا تستطيع قوة الف ملاك أن تحركها . فالقوة كامنة ، ولكن عندما تعرف القوانين المحركة لها حينئذ تعمل هذه القوة . لقد كانت جماهير كثيرة من الناس والعبيد والخدام والفلاحين الأوغاد كقطعان المواشي. جاءت المسيحية اليهم بهذه الرسالة : انتم أولاد الله ، انتم كائنات خالدة ، قوموا وكونوا رجالا وعيشوا كما يحق لأولاد الله. فالهبت هذه الرسالة فيهم شعلة مقدسة من لواعج الرجاء . فالمسيحية هي لمسة السماء المقدسة لهذا العالم

.

وهذا يصدق ايضا على العالم الثقافي . توجد مسائل عظيمة تواجه المفكرين من الرجال والسيدات . هل نحن عائشون في عالم يتخبط في بيداء المصادفات ويسير على غير هدى تتناوبه أيدى الفرص العمياء ؟ أم هناك مشرع وحاكم عظيم سيد لهذا الكون ؟ واذا كان إلها فهل تكلم أم هو صامت ونحن بكم وصم ؟ وهل هناك وشائج صلة تعلن الله في قلوب بنيه ؟ وهل كلمنا نحن ضعاف الحس بواسطة الانبياء الملهمين والمعلمين ؟ وفي حياة المسيح هل هناك اعلان عن الله لم يكن ممكنا أن يعلن لنا فى غيره ؟ وهل حدث شيء ذو بال لعالمنا هذا عندما ولد المسيح في بيت لحم ؟ أم كان المذود مشابها لأى مكان آخر من الأماكن التى لا تحصى التي ولد فيها المساكين ؟ وهل كانت الجلجثة حدثا عاديا بالنسبة الى هذا العالم ؟ أم كان المصلوب لا يزيد عن شهيد راح ضحية لكبرياء البشر وشهواتهم ؟ وهل هناك غفران للخطية ؟ وهل توجد حقيقة منطوية في الدعوة القائلة: «قوموا الأيادى المسترخية والركب المرتعشة ثبتوها ؟ ام يجب ان تترك الذراع الضعيفة في عجزها ، الرجل العرجاء تخمع ، ويستمر كاسر الناموس سادرا في غيه ، حاملا في نفسه حكم ناموس الله ؟

هذه اسئلة خطيرة تجول بنفس الانسان ، فكيف نعالجها ؟ اولا : قد نمر بها مر الكرام ، ولا نهتم لها ، ونقول ان الأمر لا يهمنا فالحق هو ما اصطلحنا عليه وصار عادةً

عندنا . انى اعترض على هذا قائلا : اذا كنت تفكر كما يخطر لك وتعمل كما تهوى فحذار أن تلعب بالنار لأن أصابعك ستحترق بدون شك. ولتعلم ان الاباحية ليست هى الحرية ، والتفكير الاباحى ليس حرية التفكير ولكنه التحرر من التفكير. فالرجل الذى يقول : لست اريد ان ازعج نفسي بمعرفة وجود الله، أو أن المسيح اله ، أو أن الكتاب موحى به ، ليس مفكرا بالمرة . لأن التفكير معناه تتبع مسألة حتى تصل الى نتيجتها. وأولئك الذين يدعون أنفسهم « المفكرين الأحرار» (الذين ينظرون باستهتار وسخرية الى العقائد ، لا فكر عندهم بالمرة، وما هم الا اباحيون في عالم الثقافة والفكر . لقد وهب الله أولاده قدرة ليعالجوا مشاكل الحياة الحاضرة والأبدية ، فيقول : « لا تطفئوا الروح . لا تحتقروا النبوات . امتحنوا كل شيء . تمسكوا بالحسن » وهذه هى «الماجنا كارتا» اساس الدساتير للحرية الفكرية والروحية . لأنك موهوب بطبيعة روحية وقوة ايمان وسلطان لمعالجة غير المنظور ، فلا تطفىء هذه الجمرة المقدسة ولا تسمح للآخرين أن يطفئوها . انها جمرة من المذبح فدعها تتوهج .

يوجد انبياء وشعراء حصلوا على قسط وافر من المعرفة السماوية . فخذ آراء رجال العلم والاختراع ، وخذ أيضا شهادة الشعراء والأنبياء وذوى البصيرة الداخلية النفاذة. اسال «هربرت سبنسر» ماذا يقول لك ، ولكن لا تنس في الوقت ذاته ما يقوله لك«تنيسون». هؤلاء الرجال لهم شهادتهم وقد رأوا ذلك النور الأبدى الذى يشع في كتاباتهم . فلا تحتقر رجال الرؤى ، لكن لا تاخذ كلامهم حجة مسلمة بدون فحص . اختبر شهادتهم وامتحن كل شيء . كيف ؟ هل تجد في منتجات قرائحهم ما يشد عزمك ، يأخذ بيدك ، ويرفعك ، ويزيدك اشتياقا الى الحق ، ويرفع قيمة نفسك في موازين الرجولة ، ومقاييس الحياة الجديرة بالعيشة ؟ اقبل هذا وتمسك بأهدابه لاته نافع وتمسك بالحسن

.

ومما لا يختلف فيه اثنان أيضا أن نواميس الحياة الروحية ليست قيودا تحد من حريتنا بل اداة تهبنا قوة . يوجد عدد كبير من الناس يظن ان ناموس الحياة الروحية صعوبة يجب مقابلتها وتحملها - مع أنها قوة نستخدمها - ويفتكرون أنه يجب عليهم أن . يطالعوا اصحاحا من الكتاب كل يوم ، وأنه يجب عليهم أن يصلوا صلاة طويلة في الصباح ومثلها في المساء ، وأنه يجب عليهم أن يواظبوا على الكنيسة كضريبة

وقسيطة عليهم لله ، وأن يحفظوا الأحد لأنه يوم الرب وباقى الايام هى لهم . كلا وألف كلا : فالكنيسة والأحد ، الكتاب ليست اغلالا تكبلنا بقيودها وتتدخل في حريتنا بل هى مؤهلات ومران، ومواهب توسع قوانا .

فالكتاب المقدس هو مكتبة . وما هى المكتبة ؟ اتذكر اني لما تخرجت وتعينت خادما في نيويورك في ايام شبابي ، كان لي عم نقل من منزله ووضع تحت تصرفى مكتبته وكانت مؤلفة من أربعة آلاف كتاب تقريبا ، وكانت فى كنيستى غرفة مكتبة فارغة لا يوجد بها الا أرفف ، فكم سررت جدا و فرحت بالكتب . وفيما انا ابتدىء انقل الكتب المكدسة على أرض الغرفة وانا مسرور وتزدحم راسي بالآمال العظيمة وما ستضيفه هذه الكتب من ذخيرة الى علومى في المستقبل اذا بحارس الكنيسة يفتح الباب : ماذا تفعل ؟ تنهد تنهدة طويلة وقال: حسن كم انا سعيد أنى لست مضطرا ان اطالع كل هذه الكتب. وفي ظنى أن كثيرا من الناس عندهم هذه الفكرة فيما يختص بالكتاب المقدس. واجبهم أن يطالعوا من الكتاب اصحاحا كل يوم ، وينتهى الأمر وكانهم قد تحرروا من حالتهم.

.

وما هى المكتبة ؟ انها مجموعة احسن الافكار التي انتجتها أعظم رؤوس المفكرين في تاريخ العالم . ففى المكتبة يحدثك «افلاطون» عن الفلسفة ، و« دانتى » عن العالم الروحى ، و« هوميروس » من قدماء الاغريق ، و« ناكرى » عن لندن ، و «اسكوت» عن عالم البطولة والشجاعة ، و «براوننج» و «وتينسون » عن عالم لم يره أحد قط وكل منهم يحدثك في الوقت المناسب لك ويسكت عندما تريد. ان الكتاب المقدس هو أوسع حجة عن الأمة العبرانية ، في احزاني اسال أرميا لكي يكلمنى ، واذا ما تطرق الخوار الى عزمى ارجع إلى اشعياء لكى يكرر على مسامعى رسالته المعزية التي خاطب بها اسرائيل قديما ، واذا ضلت خطاى في شعاب الخطية افتش عن الكاتب المجهول الذى دبجت براعته المزمور الحادى والخمسين ، وقد انحدر سائرا في وادى الموت لكى يقص على اختباره كيف حصل على التوبة والغفران. واذا داهمتنى التجربة وتركت لأقاتل قتال الموت مع «ابليون» في وادى الاتضاع ، ابحث عن بولس في جهادى كى يقودنى الى مصدر القوة لاكسب الغلبة ، لأنه ياخذ بيدى وينتشلني من وادى اليأس الى النعمة حيث الطيور تبعث اغاريدها ، والشمس ابهى مجدها ، الى جو حرية مجد أولاد الله.

يوجد اناس عاشوا مع الله ، وبواسطتهم تكلم الله للناس في الكتاب .

وما هى الصلاة ؟ هل هي شيء انا مدين به الى الله ؟ بما.؟ ولكن الحقيقة الأساسية العظيمة هى هذه : إنى اتوجه الى أب الكل فإنه يسمعنى وفي استطاعتى ان اتجاذب اطراف الحديث معه ويرد على . اذا كان هذا حقيقيا افليس عظيما أيضا ؟ خالق الكون ، مؤسس الأمم ، ومقوضها ، من بيده تصريف مصير كل فرد بالذات في امكانى أن اكلمه ، ويكلمني . هل هذا قيد يقيني أم هو توشيح بقوة ، وتزويد بمعونته ؟ وما هو الأحد ؟ انه في الاصل يوم الانسان لأن المسيح يقول : السبت انما جعل لاجل الانسان . كم يملأ الأسف قلبي على إنسان في يوم الأحد، الذي خصصه الله للراحة والاستجمام وكانه يقول للناس : الآن في امكانكم ان تتركوا ضجيج الحياة ومنازعاتها ويكون لكم هذا اليوم للبنيان الروحى واستخدام انبل شيء في الحياة وهو الشركة مع الله - اسفى على انسان لا يجد في هذا اليوم شيئا أفضل من مطالعة جرائد الأحد.

منذ سنين ذهبت لأزور مناطق الفحم في «بنسلفانيا» في وقت كان العمال يهددون بالاضراب . قلت لأحد العمال: لماذا لا تذهب الى الولايات الغربية وتأخذ حقلا وتزرع فيه وتكون مستقلا في عملك؟ فأجاب : نحن لا نريد ان نشتغل خارج الأبواب . اننا نحب الشغل تحت الأرض في المناجم لأنها جميلة ومعتمة والشمس لا تشرق ولا تنغصنا بحرارتها واذا الدنيا امطرت لا يصل المطر الينا . لما أرى الانسان الذي قال له الله : خذ يوما وتسلق قمة الجبل حيث الطيور ترسل اغاريدها الشجية والشمس توزع نورها البهيج ، والسماء تموج بحرية مجد اولاد الله - لما اراه قاعدا يقرأ صحف الأحد المشحونة بأخبار المصانع والاسواق وصخب السياسة وعفارها اقول : هذا فحام آخر لا يريد أن يعيش خارج الأبواب

لقد استرسلت في شعاب الكلام بحيث يتعذر على ان اضع كلا هذه الأفكار في عظة واحدة ، ولكى أوفيها كان لزاما على ان اخصص لها أربع أو خمس عظات ، ولكنى اكتفى بأن اترك لدى كل واحد منكم هذه الفكرة الرئيسية : ان نواميس الله ليست قيودا ولا اربطة ولكنها امكانيات ومعونات . ان القدير يضع رهن اشارتنا القوى الروحية والأدبية والطبيعية قائلا : متى عرفتم كيفية استخدامها تكونوا أولاد الله ، وتستطيعوا تسيير دفتها كما اسيرها ، وتملكوا عليها كما افعل . هذا ما يعنى المسيح بقوله : قد اتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل . وهذا ما يعنى بقوله : ستنالون قوة متى حل

الروح القدس عليكم . هذه هى حرية اولاد الله ، فالاستباحة ليست هى الحرية كما ان الاستعباد ليس هو الحرية . بل نوال . القوة التى خصصها الله ، وتفهم مراميها وكيفية استخدامها كما يشاء هو ، الأغراض روحية سماوية ، هذه هى حرية مجد اولاد الله . حينما نكب الدكتور «مون» في عينيه وذهبت عنه نعمة البصر ، لم يندب حظه ويجلس باكيا حزينا ، بل قال : اللهم اجعلنى أمينا على هذه الوزنة لكى اتاجر بها واربح . وهكذا كان (مون) أمينا على الوديعة فقد اخترع في عماه طريقة مون للقراءة البارزة التى استفاد بها ألوف العميان في انحاء العالم .

منقولة من كتاب اشهر المواعظ مع التنسيق

الرب يستخدم هذه العظة لمجد إسمه